العقد الطبيعي لميشال سير
قراءة في كتاب
بلقصير مصطفى*

1 ميشال سير وإطار تفكيره العام

ولد ميشال سير فيلسوفنا عام 1930م في مدينة أجن بفرنسا من أبوين فلاحين. التحق بالمدرسة البحرية عام 1949م وبعد 3سنوات أي عام 1952م التحق بمدرسة المعلمين العليا وهنالك اكتشف شغفه للفلسفة، وقبل تكريس نفسه ووقته لذلك عمل كضابط بحري على متن سفن متعددة بين عام 1956م و1958م. لذا السفر بالنسبة له لديه أكثر من دلالة فبعد تجربته الثرية وخبرته الغنية قرر أن يتحول إلى التدريس بعد حصوله على الدكتوراه عام 1968م درس بجامعتي كليرمون فيران وفينسين وكذلك بجامعة ستانفورد وفي سنوات تدريسه التقى بجول فويلمين Vuillemin Jules، وميشال فوكو Michel Foucault، ثم انتخاب للأكاديمية الفرنسية رسميا 1990م. توفي ميشال سير يوم السبت 1 جوان 2019 عن عمر ناهز 88 عاما.

من خلال نشر كتابه في العقد الطبيعي عام 1990، أصبح ميشال سير احد رواد التفكير الأخلاقي الفرنسي في القضية البيئية. وفي نفس الوقت، كان فيلسوفًا للعلوم ومؤرخًا، وخدم البحرية الفرنسية في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي. وقد ألهمت تجربة البحر هذه فكرة ولغة الكاتب والفيلسوف سير. شرع بعد ذلك في مهنة أكاديمية مزدوجة في جامعة السوربون وجامعة ستانفورد في الولايات المتحدة. ولديه اهتمام كبير في علم التحكم الآلي ونظرية الاتصالات(53). في عام 1990، تم انتخابه في الأكاديمية الفرنسية.

لم يقبل سير خلافا لأستاذه غاستون باشلار، أن يكون أي علم معين – ناهيك بالعلم الطبيعي– خاضعا للتحديد الوضعي لميدان البحث المتجانس والمنعزل. بل إن شكل وطبيعة

---

*– باحث بجامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة.

المعرفة كما يصفها تقترب كثيرا من شكل المهرج: شكل مركب لديه دائما ثوب آخر تحت ثوبه الذي يخلعه، فالمهرج شكل هجين، خنثى، خليط من عناصر متنوعة إنه تحد للتجانس

لقد صمم ميشيل سير أركيولوجيا الرياضيات الحديثة وراهن على هرمس على حساب برميثوس، ثم توجه إلى دراسة العلوم الإنسانية. لذلك لم يفتأ يكتشف مناطق جديدة. وهو يتناول اليوم في العقد الطبيعي ميدان القانون). (إن اختراق الحدود بين العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية امتد أثره وفتح الآفاق لتفكير فلسفي حول مآل العلم وآثاره على الإنسان والطبيعة . أو ما يعرف بالتفكير الإيكولوجيى أو أخلاق البيئة، فالأخلاقيات البيئية هي المسلك الذي جعله ميشال سير مطلبا ضروريا في مسيرة العلم المعاصر.

2 الإشكالية الأساسية في العقد الطبيعي

لا يستخدم ميشال سير في كتاله العقد الطبيعي مصطلح الإيكولوجيا مرة واحدة لماذا؟ لأنه، لا يتحدث عن هذا العلم ولا عن الالتزام النضالي أو المذهبي لما يسمى بأنصار أو أصدقاء البيئة، فإنه لا يتعامل لا مع الكلمة ولا الأمرين، بل يتعامل العقد الطبيعي مع فلسفة القانون. يتناول ميشيل سير في كتابه العقد الطبيعي ميدانا جديدا: هو ميدان القانون لقلب الإشكالية ويجعل من الطبيعية نفسها موضوع قانون ، وهو أمر يعادل من حيث الثورية الإعلان العالمي لحقوق الإنسان،. ويمثل ذلك الطريقة الوحيدة والفريدة لوضع حدود للسلطة التقنية العلمية التي تزداد خطورتها

يعتبر كتاب "العقد الطبيعي" لصاحبه ميشال سير، بمثابة نداء واسترحام واستعطاف إلى العالم، إضافة إلى هذا يعد العقد الطبيعي مجالاً جديداً في جوهر الإشكالية، وهو مجال القانون لتصبح الطبيعة نفسها موضوع قانون وذلك بغرض وضع حد للتقنية المبالغ فيها.

يتعلق الأمر أولا في الوقت الحاضر بإعادة طرح مسألة العلاقات القائمة بين العقل العلمي والعقل القانوني، إذا فكتاب العقد الطبيعي لميشال سير ، يتعامل مع فلسفة المعرفة والعمل، بالمعنى التقليدي والعام للمصطلح، ولكن حول إشكالية مطروحة بشكل عاجل، من طرف علوم وتقنيات اليوم. هذه الإشكالية تتعلق بمستقبل البشرية، ضمن الخطر البيئي

المحذق بها، فتطرح أسئلة أساسية: ما هي حدود كوكبنا الأرضي؟ ما هي واجبات الحضارات المعاصرة إتجاه الطبيعة؟ وهل يوجد نهاية للطبيعة مجهولة لنا؟

3 مضمون الكتاب

أ -التحول في العلاقة بين الإنسان والطبيعة

يستهل سير كتابه بوصف لوحة الرسام الإسباني فرانسيسكو دي غويا Francisco de Goya (1746-1828)، و"لوحة غويا" Goya ، وهي واحدة من ضمن لوحاته السوداء الرابعة عشر. إنها تمثيل لعالمنا، تحكي عن علاقة الإنسان بمحيطه، ويمكن القول أن كل المسائل التي يعالجها الكتاب متعلقة بهذه اللوحة، التي بدورها تروي لنا أو بالأخص تبين لنا الصراع القائم بين رجلان يلوحون بالعصي في وسط الرمال المتحركة، وكل الانتباه مشدود حولهم، وقد كان السؤال المطروح من الغالب؟ ومن المغلوب؟. ومن شدة احتدام الصراع لم يلفت انتباهنا وجود رمال متحركة تحتهما، فهي عامل أخر يدخل ضمن قواعد الصراع. مع كل حركة يقومون بها هم يغرقون ويدفنون أنفسهم تدريجيا ولا يلاحظ المتحاربون الهاوية التي يهرعون إليها. فهم ساعون إلى تدمير أنفسهم متناسون عالمهم، مركزين على شجارهم غير مدركين للخطر الذي ينتظرهم. إنه مشهد بائس من المرارة، قسوة، ضرب، وفي النهاية ليس هناك منتصر أو مهزوم لأن كلاهما نهايته مأساوية.

لوحة غويا Goya

لوحة غويا إذن، تمثل صورة تعبر عن وضعنا الحالي وتوضح علاقتنا بالطبيعة التي لم تعد لديها القابلية على التحمل أكثر من هذا، وستبتلعنا تماماً كما حدث مع مقاتلي غويا. نحن في طريقنا لدفع ثمن التعسف والأذى الذي ألحقناه بها وتجاهلنا لها. إذن القصة ليست قصة نضال أو صراع بشري أي صراع رجل ضد رجل كما اعتدنا في تاريخنا، إذ كنا نرى المتحاربين في المعركة ولم نكن نهتم إلا بمسألة من سيفوز أو من سيخسر ومن سيصبح السيد ومن يصبح العبد عن طريق الخضوع. بل هي قصة العنف اللامحدود الذي يحدث الأن بين الإنسان وعالمه، العنف التي ترتكبه الإنسانية على الأرض، ففقد السيطرة فأصبح العالم يمثل خطر على حياته.

والنتيجة بلغة ميشال سير هي اختفاء العالم والأرض، وصرف الاهتمام بالذات العاقلة وبحقوقها المدنية والسياسية كما ظهر في العقد الاجتماعي، الذي يوضح تمجيد وفرح الإنسان بالإنسان والإهمال الكلي للطبيعة وكائناتها التي تشاركه الوجود في هذا الكوكب وبدونه لا يقدر الإنسان العيش ولو ثانية، لهذا يقول سير: "إن التغير البيئي العالمي أجبرنا على إعادة النظر في علاقتنا بالطبيعة. ففي كتابه يدعو سير إلى عقد طبيعي للتفاوض بين الأرض وسكانها".

ب – العقد الطبيعي

يتميز التاريخ البشري بعدد لا يحصى من الحروب المميتة. يشير الفيلسوف والمؤرخ سر إلى أنه على الرغم من العنف، لا يزال الصراع يفترض مسبقًا لغة مشتركة يمكننا الاتفاق عليها. من وجهة النظر هذه، ينطبق الأمر نفسه على النقاش. لن يكون هذا ممكنًا بدون رمز مشترك مقبول من كلا الجانبين، العقد بعبارة أخرى. لذلك فإن الحرب هي "سيادة القانون". ويدل على ذلك عبارة "إعلان الحرب".

إذا كانت العلاقة بين المتحاربين ناتجة عن عقد، فإن هذا الأخير يوحدهم حتماً ضد عدو آخر مشترك ووحشي. هذا إلى جانب المآسي الإنسانية للقتال، إذ يتم ممارسة العنف على عالم الأشياء، يسميه ب " عنف موضوعي "، المبارزون كما هو في لوحة الرسام الإسباني غويا، التي إستهل بها ميشال سير كتابه العقد الطبيعي، لا يرونهم يغرقون في

المستنقع أو المحاربون في النهر معًا . بشكل واضح يظل التاريخ أعمى عن الطبيعة، فأمام هذا الخطر، يكمن الحل وفق سير في تأسيس عقد يحد من السلوك الطفيلي للفرد والجماعة.

يتكون مفهوم "العقد الاجتماعي" الذي وضعه روسو (1762) من وضع هيكل المعاملة بالمثل والالتزام التعاقدي بالمبدأ أو على الأساس (المثالي) للمجتمع السياسي: نلتزم ببعضنا البعض، كل منا مع الكل، للحد من حرياتنا الطبيعية حتى نتمكنوا من التعايش بسلام بموجب قوانين إرادتنا العامة. ستقيد هذه القوانين الحريات بمعنى أنها ستحدد حدودها المخصصة، ويكون إنتهاكها مصحوبًا بعقوبات جزائية. ولكن في جميع الأشكال تكون الطبيعة الخراجية في العقود بين البشر غير شريكة ولا حتى موضوع لأي عقد، على الرغم من أنه من المتصور أن يتعهد الرجال بموجب العقد (فيما بينهم) بعدد معين من الالتزامات المتعلقة باستخدام بيئتهم المباشرة، والأشياء الطبيعية والحيوانات. في الواقع، إذا اعتبر المرء أن الالتزام التعاقدي هو مبدأ العلاقة بين القانون والمواطنين، فمن الواضح أن هذا الالتزام الضمني يتعلق أيضًا بالتشريع – الذي يخضع أحيانًا لوزارة – فيما يتعلق بحماية البيئة والحيوانات. هذه خطوة تعاقدية ذات طبيعة سياسية قانونية، حيث أننا ملتزمون باحترام عدد معين من القيود القانونية من حيث "استغلال" الطبيعة التي تحيط بنا. ومع ذلك، في جميع هذه العقود المتعلقة بالطبيعة، هل نعتبر الطبيعة، وكذلك الحيوانات التي تعيش فيها، كمواضيع قانونية نلتزم بها؟

يريد ميشيل سير أن يأخذ فكرة العقد كخطوة أخرى في اتجاه الواجبات تجاه الطبيعة، باعتبارها تخضع للحقوق بالمعنى الصحيح، من خلال النظر في عقد طبيعي أو عقد بين الإنسان و الطبيعة. العودة إلى الطبيعة التي يدافع عنها سير يعني العودة: "إلى عقد حصريا إجتماعي، بإضافة تمرير عقد طبيعي للتكافل والمعاملة بالمثل، نتجنب من خلاله ضمن علاقتنا بالأشياء، السيطرة والامتلاك، إلى الإعجاب المتأمل، والمعاملة بالمثل، التأمل والاحترام، "، يجب أن يفسح المجال لتبادل ليس فقط حيوي، على نموذج العلاقة بين الأم والطفل، ولكن أيضا على الجمالية، الفكرية والعاطفية.

لتبرير هذا العقد من التكافل الذي ليس بيولوجيًا فقط – حتى بالمعنى الواسع – ولكنه "وجودي" من حيث أنه يغطي جميع أبعادنا للوجود العلائقي، سوف يفضل ميشال سير العلاقة العاطفية، الحب. لذلك فهو يبني العقد الطبيعي على حب الأرض، التي تم تجاهلها لفترة طويلة بسبب كراهية الرجل الآخر، العدو الوراثي، وبالتالي فالإنسانية عند فيلسوفنا "عكس، للدفاع عن الرجال الآخرين أو مهاجمتهم، قمنا بطردهم بدون التفكير في المناظر الطبيعية وكنا على وشك تدمير الأرض بأكملها".

ج- التفاعل بين القانون والعلم

يقر ميشال سير بالترابط والتفاعل بين مختلف العلوم ومختلف أشكال المعرفة، وكذلك بين العلوم والممارسات الفنية المختلفة. بل يعهد سير إلى نفسه مهمة كونه وسلة للتواصل (وسيط) بين العلوم والآداب – إنه يمثل كما يصف نفسه دور الإله هرمز في مجال البحث العصري، فما هي العلاقة التي يجدها سير بين القانون والعلم؟

من أجل توضيح هذه العلاقة، يدعونا سير إلى العودة لحظة إلى بضع مراحل في تاريخ العلم. منذ زمن الفلاسفة الأوائل المهتمين بالبيولوجيا، كانت الطبيعة مكانًا للفوضى. أناكساغوراس، على سبيل المثال، لم يفشل في إثارة عار مواطنيه، الذين اتهموه بالتخلي عن قوانين المدينة لرعاية السماء والنجوم، معتبرين فعله ذلك،ينتهك القوانين التي توحد سكان المدينة. أدين أناكساغوراس لادعائه أن الشمس حجر مشتعل. سيكون الأمر نفسه مع جاليليو. أدانه المكتب المقدس في عام 1633 لدعم المفهوم الكوبرنيكي للميكانيكا السماوية. فكانت العبارة الشهيرة التي وضعها الأجيال القادمة على شفتيه "ومع ذلك يتحرك! يرى الفيلسوف الفرنسي أن أناكساغوراس وجاليليو، كلاهما كان يشك في كفاءة القانون في الحكم على أطروحاتهم المتهمة. لا تخضع الشمس والأرض لسلطة قضائية تهدف إلى تقرير الأمور الاجتماعية أو الكنسية. من المؤكد أن المحكمة ضرورية للحكم على صحة تصريحات أناكساغوراس وغاليليو. ولكن العلوم الفيزيائية والمجتمع العلمي هما اللذان يتناسبان تدريجيًا مع الموضوع المطروح. ويخلص سير إلى أن: "العلم له كل الحقوق. والقانون كان يسبقه؛ على مر التاريخ. تتعارض هاتان

الحالتان، فأحدهما ينتحل صلاحيات الآخر؛ وفي النهاية، العلم وحده له الكفاءة في إمساك الميدان أو الأرض.

ولذلك فإن العلم يفوز في النهاية على القانون. هنا يحذر سير من عدم الاستهانة بعواقب هذا الوضع .من خلال التشريع المتعلق بالطبيعة، يأخذ العلم كل اختصاص من الإنسان. إنه يمثل طبيعة بدون ذات – طبيعة بهذا المعنى الموضوعي – لا علاقة لقوانينها بالمجتمع. فتصبح الفجوة بين القانون والعلوم، بين الفضاء الاجتماعي والفضاء الطبيعي أكثر وضوحًا.

معتبرا لنفسه الحق في الطبيعة، يواجه العلم اليوم حدودًا: حدود المعرفة، والموارد الطبيعية، والإتقان التقني. لم تعد المسألة في الخطا أو جهل. بل إنه موت محتمل بالتدخل البشري. الأرض تتغير وليس للأفضل فجأة ندرك أن الأرض تعتمد علينا. لكن هذه الأرض لم تعد أرض العلم غير المأهولة. إنها أرض الظروف البيئية لإنسانيتنا. يقول سير إنه يجبر العلم على الرجوع إلى القانون.

المصادر

1. Serres Michel, le contrat Naturel, Editions François Bourin, Parie, 1990.
2. Serres, Michel, Retour au Contrat naturel. Nouvelle édition [en ligne]. Paris : Éditions de la Bibliothèque nationale de France, 2000 (généré le 14 mai 2020). Disponible sur Internet :

<http://books.openedition.org/editionsbnf/1480>. ISBN : 9782717726923. DOI : https://doi.org/10.4000/books.editionsbnf.1480.